المعتقدات الدينية في العراق القديم

كان الدين من أهم مقومات حضارة وادي الرافدين القديمة حيث شكل جانبا روحيا من تفكير الإنسان على مر العصور . فالأفكار والمعتقدات الدينية غالبا ما تحدد الهيكل العام لسلوك الإنسان وتؤثر على عاداته وتقاليده واعرافة ونمط بناءة الفكري والروحي . وتتركز الديانة العراقية القديمة على ثلاثة عناصر رئيسة : وهي الفكر الديني والشعور الديني والشعائر والطقوس والعبادة ودراسة هذه الديانة من الأشياء البالغة الصعوبة ، ولكن سنحاول إعطاء حل أو تفسير تاريخي لهذه الآيات .

عبادة القوى الطبيعية :

في الحقيقة لا نعرف بالتحديد متى كانت البداية الأولى لنشوء فكرة الدين وممارسة العبادة للمرة الأولى عند الإنسان العراقي القديم . ولكن من المعروف إن في شمال العراق يكثر سقوط الإمطار الغزيرة ويزداد عصف الرعود والبروق وفيضان مجاري الأنهار في المنطقة الجبلية ، فكان ذلك يسبب خوفاً شديداً لدى إنسان العصر الحجري القديم وبسبب عدم معرفته بحقيقة الظواهر الطبيعية فتصور هذا الإنسان في بادئ الأمر بوجود قوى و أرواح شريرة كامنة في هذه الظواهر فظهرت بذور عبادتها تحاشيا لشرورها وإرضاءاً لها فاعتقدوا بوجود آلهة تسكن فوق قمم الجبال .

إما في جنوب العراق حيث السماء الصافية والأرض السهلية مكنت الإنسان من رصد وملاحظة الكواكب والنجوم بشكل واضح ولاحظ التغيرات المناخية بين ليل ونهار وصيف وشتاء فعبد تلك الكواكب أيضا . وبذلك ظهرت المجموعة الأولى من الإلهة وهي إلهة الطبيعة . ونعتقد إن عبادة هذه القوى كانت عبادة روحية تأملية وليست عبادة تجسيدية صورية لعدم العثور على دمى أو تماثيل .

وبعد إن عرف الإنسان الزراعة وظهرت القرى الزراعية في الإلف التاسع ق.م . أصبحت الأفكار أكثر تعبيراً وشمولاً لواقع المجتمع آنذاك ، فتعلق الإنسان بزرعه ومحصوله وارتبطت حياته بفكرة الخصوبة والنماء وخشي تقلبات المناخ المفاجئة . و لذلك ظهرت في قرية جرمو في الإلف السادس ق. م مجسمات دمى من الطين مثلت بعض الحيوانات المختلفة ، وكذلك تم العثور على مجموعة دمى من الطين على هيئة نساء حبالى أو بدينات الجسم ذات اثدية كبيرة أطلق عليها مثيولوجيا اسم (الإلهة . إلام) وكانت تشير إلى رموز دينية اقترنت بوظيفة المرأة في عملية الإخصاب والإنجاب وأيضا ترمز إلى قوى الخصب والإنجاب الطبيعي للأرض . وان تلك الدمى شهدت تطورا فنياً ملموسا مع تطور القرى الزراعية تدريجيا وهذا ما اكدتة المكتشفات و التنقيبات والتحريات الأثرية

ظهور الإلهة :

تطور الفكر البشري مع مرور الزمن وتقدم الجوانب الحضارية فيه . وقد ساعد استقرار السومريين في جنوب العراق وازدهارهم الاقتصادي والسياسي إلى نشوء حرية واسعة في الفكر والشعور الديني . فاتضحت معالم الديانة العراقية المنتظمة واكتمل نضوجها في العهد السومري في منتصف الإلف الرابع ق .م . أما الاكديون والبابليون والأشوريون فقد اقتبسوا الديانة السومرية، وأضافوا إليها تغيرات طفيفة في عدد الإلهة وأسمائها ونعوتها وأشياء أخرى لكنهم لم يغيروا جوهر الديانة الأصلية واعتقد السومريون بوجود مجمع للإلهة ومن خلاله يقررون ويناقشون مصير العالم وإدارة الكون وكان يرأس هذا المجمع احد الإلهة ويعتبر حينها الرب القومي والوطني للبلاد قاطبة .

إن أعظم آلهة حضارة وادي الرافدين هي التي شكلت الثالوث المقدس الذي عمت عبادته أرجاء البلاد جميعها ولعدة قرون **وهم : (أنو) إله السماء** ، والذي لقب أبو الآلهة وترأس مجمع الآلهة السومري طوال عهدهم السياسي ومعبدة في مدينة الوركاء . **و (أنليل) إلة الرياح العاصفة ومسبب الفيضان** .

وكان يترأس مجلساً إلهيا يسمى ألانونا أي الخمسين إلة . **و(أنكي) إلة المياه والأرض** وإلة الحضارة ومعبدة أي . أبسو في مدينة اريدو ، ولقب ملك الإلهة .

هؤلاء الثلاث هم الذين يقتسمون حكم الكون بينهم . ويأتي من بعدهم الآلهة الأخرى ويمثلون الثالوث الثاني ويعتبرون أبناء الإلهة الثلاثة في الثالوث الأول ..

وهم : **(سين) إلة القمر ومركز عبادته في مدينة أور** واستمرت عبادته حتى القرن السادس ق . م **و (شمش) إلة الشمس** وكان عند السومريين **إلة الحرب** .

أما الاكديين فأعتبروه مصدر الضوء والحياة وكان مركز عبادته في مدينة سيبار . و(عشتار) السيدة العظيمة إلهة الحب والخير عند السومريين والبابليين ، وإلهة الحرب عند الأشوريين و كان مركز عبادتها في معبد أي . إنا في مدينة الوركاء وانتشرت عبادتها بعد ذلك في الجزيرة العربية وبلاد الشام . و (دموزي أو تموز) إلة الزرع والخصب وسمي بالآلة الراعي ، الذي يجدد نمائه في فصل الربيع وهو زوج عشتار . و (مردوخ) رئيس مجمع الإلهة البابليين طوال فترة حكمهم السياسي ومجدوه بخمسين نعت وصفة إلهية و(نركال) إلة العالم السفلي عالم الأموات وإلة الجحيم والنار . و(أدد) إلة الإمطار والزوابع والعواصف ومعبدة في بابل . و(ننخرساج) إلة إلام وعرفت ايصا باسم (ننماخ) أي السيدة الوالدة . و(نابو) أو (نبو) إلة الحكمة والعلوم والآداب والكتابة ، وأثار معبدة المسمى (أي . زبدا) مازالت خرائبه في مدينة بورسيبا المعروفة باسم برس نمرود قرب الحلة. واستمرت عبادته إلفي سنة

وقد عبد السومريون والاكديون والبابليون والأشوريون مئات الإلهة حيث وصل تعدادهم في منتصف الإلف الثالث ق .م حوالي ٢٥٠٠ إلة حسب الوثيقة التي عثر عليها في مكتبة الملك الأشوري أشور بانيبال .

ولكن بالتأكيد لم يعبد سكان بلاد الرافدين كل هذه الأرقام من الإلهة مرة واحدة فهناك أسماء عدد كبير من الإلهة هي عبارة عن نعوت وصفات كانت تطلق لتمجيد الإلهة وامتداحهم . والإلهة التي ذكرناها كانت هي الإلهة الأكثر شهرة عند الناس وبقوا على عبادتها لقرون طويلة من تاريخ العراق .

<u>خلق الكون والإنسان :</u>

ألف السومريون والبابليون أساطير وقصصا عدة تتناول بصورة مباشرة أو غير مباشرة موضوع خلق الكون والإنسان، وجاءوا بهذا الخصوص بأفكار مهمة اعتمدتها الكثير من الشعوب المعاصرة واللاحقة لهم، ومن هذه الأساطير الأسطورة التي تدور حول كلكامش ورفيقه انكيدو، إذ تتضمن هذه الأسطورة معلومات مهمة عن انفصال السماء عن الأرض على يد الإله انليل بعد أن كانت كتلة واحدة .

الكون في السومرية (AN–KI) وتعني السماء والأرض، ومن نص مسماري نعرف ان السماء والارض في الفكر الديني القديم لم تكونا قد انفصلتا بعد ولم يكن في العالم باسره سواء من البشر او الالهة غير الاله آبسو والالهة تيامت وكلاهما يمثلان المياه ولكن لكل منهما صفته فآبسو هو الاله الذكر في عملية الخلق ويمثل المياه العذبة المتمثلة بمياه النهر وتيامت تمثل المياه المالحة أي مياه البحر وهما موجودان في حالة من الظلمة او الفوضى او مادة الكون قبل تكوينه او غموض وهو المصطلح الذي اطلقه اكثر الباحثين في اسطورة الخليقة ويريدون به المادة الاولى المضطربة والمشوشة التي كانت اصل جميع الاشياء.

ان الملاحم السومرية والبابلية في العراق القديم:(قد بينت لنا ان سكان بلاد الرافدين لم يتساءلوا عن نوعية القوة التي قامت بخلق الآلهة الرئيسة، بل اعتبروا وجودها من الامور الازلية التي لا تحتاج الى نقاش وان هذه الالهة هي التي قامت بخلق الكون والانسان وسبب هذا الايمان، لأنهم كانوا يتحسسون تأثير هذه العوامل على حياتهم، فحولوها الى الهة. لقد التحم الإله (آبسو Absu) والآلهة (تيامتTiamat) مع بعضهما ليكونا الآلهة جيلا بعد جيل لكن هذه الالهة كانت ذات طاقة حيوية تختلف في طبيعتها عن الهدوء الذي يتصف به كل من الاب آبسو والام تيامت وفعلا تبدأ عملية الخلق وهنا نلاحظ ان الاجيال المخلوقة بتعبير القصة تتكون على هيئة ازواج كما هي حالة الاب والام (آبسو وتيامت) وهي تحمل الصفات نفسها التي حملتها القوى القديمة المتالهة فالإله (لخمو) و (لخامو)، يمثلان الطمئ والغرين على ما يبدو وهما ما يتراكم في مجاري المياه، وهما يتألفان من ذكر وانثى ومنهما ولد الالهان (انشار ،وكيشار) وهما وجهان

من اوجه الافق وهما يمثلان الذكر والانثى ايضا، ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة جديدة في الخلق وهي الخلق المنفرد حيث يولد (آنو) الاله السماء من انشار وكيشار ويلد هذا نوديمود.

يبدو من متابعة عملية الخلق انها لم يولد اله لوحده او تلد الهة لوحدها دون اتحادهما وهي مسألة فطرية لكل ما هو طبيعي، ويمكن ان نستنتج ان كل جيل من الالهة المخلوقة يخلق جيلا جديدا اقوى منه واكثر تطورا من حيث الصفات التي يمتاز بها، أي انه يُعدّ جيلا بتعبير اخر اصلح للبقاء من الجيل الذي يسبقه، وان عملية الخلق لم تختلف في القصص السومرية والبابلية عدا تسميات بعض الالهة وتبعا للمقتضيات السياسية والتطور الحضاري، فقصص الخلق السومرية هي ايضا اكدت على ان عنصر الماء الذي كان ازليا وإلهياً في الوقت نفسه، وتولد من عنصر الماء عنصر اخر هو الارض والسماء متحدتين، وكانت الارض والسماء الهين ايضا وتولد من السماء والارض متحدتين عنصر غازي هو الهواء المتمدد الذي فصل بتمدده السماء عن الارض . وقد جسم السومريون الهواء وجعلوه الها هو الاله انليل وتولد من الهواء القمر، ومن القمر ولدت الشمس، وجسدوا كلا من القمر والشمس، وعدوهما الهين، وبذلك فان خلق جميع الالهة قد تم بطريقة يألفها الانسان وهي الولادة التي تنتج عن اتحاد الهين (ذكر وانثى)، إذ ان ولادات الالهة ما هي في الاصل الا بيان لكيفية وجود كل ما يحيط بالانسان من ظواهر، وبعد كل ما تقدم يمكننا القول ان قصص الخلق في الفكر العراقي القديم تكشف عن احوال سكان بلاد وادي الرافدين في مختلف النواحي المادية والروحية والفكرية في اولى مراحل التكوين الحضاري الذي شهده العراق القديم، كما انها تكشف ايضا عن تفاعل الانسان مع بيئته التي اتصفت بالعنف والتناقض وهذا ما يوضح التصورات التي بثت في عملية الخلق، التي لم تتم على نحو آمن وهادئ بأي حال من الاحوال.